٩٩/٨/٤١٧

الفكر العربي

مجلّة الإنماء العربي للعلوم الانسانيّة

تصدر عن معهد الإنماء العربي في بيروت

العدد الحادي والثلاثون كانون الثاني (يناير) ـ آذار (مارس) ١٩٨٣ السنة الخامسة

مستشارو التحرير

د. علي بن الأشهر — د. إحسان عبّاس — د. شكري فيصل

الشيخ عبدالله العلايلي — د. عمر التومي الشيباني — د. عبدالسلام المسدّي

د. مصطفى التير — د. معن زيادة — د. إبراهيم رفيدة

رئيس التحرير رضوان السيّد

المدير المسؤول عوض شعبان

العنوان

مكتبة الروضة الحيدرية
الرقم ٨٤١١
التاريخ / ٢٠١٤/٢/١٥

معهد الإنماء العربي
بيروت ـ لبنان

ص.ب المجلة : ١٤/٥٥٦٤ ص.ب المعهد : ١٤/٥٣٠٠

الهيئة القومية للبحث العلمي
طرابلس ص.ب ٤٠٨

الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية

الثمن : ٢ ل.ل. أو ما يعادلها

قراءة تاريخية للاستشراق في ايطاليا

د. ميشال فاني

كيف نُدخلُ الاستشراق في إيطاليا ضمن قراءةٍ وبموجب أيِّ ادلّة ؟

إنها قراءةٌ تاريخية للعربية كلغةٍ، ليس بحد ذاتها، وإنما كما قُرئت في لغتين اخريين: اللاتينية والايطالية؛ إنها قراءةُ لغةٍ بواسطة لغة أخرى، ولكنها أيضاً قراءة شعوب حاملة لهذه اللغة وبالتالي قراءة الإسلام كدين وسياسة ومجتمع؛ وهي قراءةٌ ثالثةٌ، قراءة دينٍ لدين آخر، الإسلام الذي يقرأ المسيحية. وبالعكس، طيلة القرون الوسطى بأسرها.

للوهلة الأولى ربما يبدو كافياً تحليلُ الوقائع المادية وحده: أبحاث عن المخطوطات، روايات مسافرين، بعثات دينية أو تجارية، وضع كتب القواعد والمعجمات، محفوظات سياسية ودبلوماسية، تطور الطباعة. ومع ذلك، هناك استعانة دائمة بالايديولوجيا: من الدواعي والصوارف، إلى انكباب الحواس على الواقع، إلى عقلنة للمعرفة التي تتكوَّن. كل الخطب التي انتجت حول الشرق، منذ القرون الوسطى وفي مختلف المستويات.

أمَّا بالنسبة إلى الشرقي الذي يقرأ هذا الكلام، فثمة إغراء بالمقارنة، واواليةٌ لا تاريخية في جوهرها، لا متساوقة زمنياً، ربما ترى هذا السير كأنه مسارٌ غامض، كجسم حاضر. وراهن في كليّته، وهذا الأمرُ ليس غير صحيح فحسب، بل إنه يخفض الذات وموضوعها نفسَهُ خفضاً سريعاً جداً بناءً على تأثير سلبي وهدّام، لإنه يتوّجب أخذ كل شيء أو تركه في كتابة حضارة لحضارة أخرى، ويعتبرُ تطبيق لغة على أخرى اكثر إثارة للاضطراب، وكذلك أوالية التباعد والتشريح التي يتضمنَّها التحليلُ والمنهج.

من السهل حذف كل شيء، ومن السحر الرغبةُ في رؤية الذات مقروءة في الآخر، وجعله مرجعاً لها (وبمثابة التقويم لتوصّله الذاتي إلى حضارته)؛ وان حبس التعارضات في قفص المراجع، وطغيان الايديولوجيا، والمعالجة الذاتية الداخلية، يعني خفض المسألة إلى سلسلة من المفاتيح والتعارضات.

تخليص الصحيح من الزائف شديداً عسيراً، حتى اضطرب فيه خلف الاحمر، وخلط فيه المفضل الضبّي، فأكثر من الأشعار المنحولة »[٢].

وأما أسباب الانتحال كما نقلها الكاتب عن ابن سلاَّم كذلك، فنذكر منها:

« أ ـ كذب الرواة للتكسُّب بالرواية.

ب ـ انتحال القصائد للتفاخر القبلي.

ج ـ انتحال القصائد لأسباب دينية »[٣].

وانطلاقاً من أن ابن سلاَّم كان عالماً ممتازاً ذا بصيرة نافذة، وانطلاقاً من أن طه حسين لم يخرج على ما قرره ابن سلاَّم، يتساءل المؤلف: علامَ هذه الضجة؟ وعلامَ هذا الاستغراب الذي جُوبِه به (طه حسين)؟ خصوصاً، أنه لم يكن أول الباحثين المحدثين في صحة الشعر الجاهلي وأسباب الانتحال فيه، بل سبقه الكثير من المستشرقين. وفي محاولة الكشف على جهود المستشرقين يتسق كتاب الدكتور بدوي بقسميه.

ففي القسم الأول، ترجم الدكتور بدوي لبعض مقالات نخبة من المستشرقين كلها هام، يحار المرء في إياها يفضل، ونحنُ هنا سنذكرها كما ورد ترتيبها في الكتاب:

أ ـ « من تاريخ ونقد الشعر الجاهلي القديم »، نشر سنة ١٨٦١ م، تيودور نولدكه (١٨٣٦ ـ ١٩٣١).

ب ـ « ملاحظات حول صحة القصائد العربية القديمة »، نشر سنة ١٨٧٢ م، لفلهلم ألفرت، ووليم ألورد (١٨٢٨ ـ ١٩٠٩ م).

ج ـ « نشأة الشعر العربي »، نشر سنة ١٩٢٥ م، لديفد صمويل مرجليوت (١٨٥٨ ـ ١٩٤٠ م).

د ـ « في مسألة صحة الشعر الجاهلي »، نشر سنة ١٩٢٦ م، ارش بروفيلس (١٨٩٢ ـ ١٩٤٥ م).

هـ ـ « مقدمة لديوان جرول بن أوس (الحطيئة) »، نشر سنة ١٨٩٢ م، اجنتس جولدتسيهر (١٨٥٠ ـ ١٩٢١ م).

و ـ « جن الشعراء »، نشر سنة ١٨٩١ م، أجننس جولدتسيهر.

أمَّا نحن، فسنكتفي بتفصيل إحدى هذه الموضوعات التي ترجمها الدكتور بدوي وهي بعنوان: « ملاحظات حول صحة القصائد العربية القديمة »[٤]. وهذه تمثِّل الفصل الأول لكتاب وليم ألورد الذي يحمل العنوان نفسه.

يستهل الكاتب مقالته بالتساؤل التالي: هي يحق لنا، وإلى أي مدى، أن نشك في صحة القصائد العربية؟

يرى المؤلف ان هذه القضية لا يمكن الفصل النهائي التام فيها، لكن التصفح لبعض كتب الاقدمين « كالحماسة » لأبي تمام، و« المغني » للسيوطي، و« الأغاني » لأبي الفرج، يعثر على قصائد كثيرة تنسب لهذا الشاعر أو ذاك، فضلاً عن القصائد التي اكتملت هنا وبقيت هناك دون مطلع أو خاتمة أو بدونهما؛ وهنا يتفرع تساؤل آخر: على أيِّ أساس جُمعت القصائد القديمة، وكيف تم جمعها؟.

انطلقت الدراسات العربية كلها في القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف اللذين كانا بلغة قريش المحدودة الانتشار، مما استوجب شرح عوامضها والاستدلال عليها بالشعر الجاهلي القديم، سيَّما ان استعمالات الألفاظ العربية والكلمات اختلفت من قبيلة الى قبيلة، حيث جمع اللغويون والنحويون فيما بعد ما أمكنهم جمعه من ألفاظ وتعابير: « سجلوا » ما وافق منها لهجة قريش وعدّوا ما تجاوزها تعابير عامية لا ينبغي استعمالها في الكتابة. وأمَّا احتكام الشعراء إلى القرشيين، كما يروي « حمَّاد » الراوية، وهم لم يشتهروا بالشعر والصور الجماهلية فيه، فإنه لا يُفسَّر إلاَّ بإقرار اللفظة واللهجة.

ومع نشوء مدرستي البصرة والكوفة، نشأت الحاجة، وبإلحاح، لاستخدام الشعر الجاهلي كشواهد نحوية أو لغوية، مما شجع اللغويين على استدعاء بعض العرب الخلَّص للإقامة بينهم أو الذهاب بأنفسهم إلى مناطق الاستعمال اللغوي. ومن هذه الحاجة نشأت فكرة جمع الأشعار

المفردة، يرفع الجماع قيمة الشاعر الذي يحسن اختيار العبارات واستخدام بعض الأفكار، بشكلٍ عدُّوه جيداً. لكن تلك المحاولات بقيت متعثّرة حتى نمو الدراسات اللغوية، وازدهار مدرستي البصرة والكوفة، ومكوث العلماء بين القبائل مدداً طويلة يجمعون ما تيسَّر لهم من سِيَر الشعراء وقصائدهم وأشعارهم. هنا، استيقظ الاهتمام بتاريخ الأدب الجاهلي، فتسابق اللغويون للأخذ من أفواه الرواة الذين تخصص كل منهم ـ أول الأمر ـ برواية شعر شاعر معيَّن اصطحبه في حلِّه وترحاله، ثم اتسعت الحاجة واتسعت معها الرواية لأكثر من شاعر. انبرى اللغويون وجامعو الأشعار منذ منتصف القرن الثاني الهجري، لإنقاذ ما تبقَّى من الشعر الجاهلي، بعدما قلَّ عدد الرواة نتيجة لحروب الجهاد وللبعد الزمني، فدوَّنوا ما جمعوه في مجاميع ومدونات، وهنا نتساءل: من هم أبرز الرواة الذين نقلوا الشعر الجاهلي؟.

من الرواة المشهورين حمَّاد بن سلمة بن دينار المتوفى سنة (١٦٧ هـ/٧٨٣ م)، الذي لم يتردَّد في الإجابة عن أي سؤال يتعلَّق بالشعر الجاهلي، وقصته مع الخليفة المهدي والمفضل الضبّي ـ بشأن قصيدة زهير بن أبي سلمى التي تبدأ: **دَعْ ذا وعدِّ القول في هَرِم...** ـ مشهورة يستدل منها أنه كان مزيفاً متعمّداً للتزييف والانتحال، ومع ذلك تنسب إليه قصائد امرىء القيس كلها، كما ينسب إليه جمع القصائد الطوال «المعلقات»، كما ينقل الكاتب عن الأصمعي وابن سلاَّم.

ومن الرواة «خلف الأحمر» المتوفى سنة (١٨٠ هـ/٧٩٦ م)، الذي كان من علماء اللغة الأفذاذ ومن أصحاب المواهب الشعرية الممتازة، إذ كان قادراً على نظم قصائد كاملة بروح القدماء ولغتهم، قادراً أن ينحل الأشعار والشذرات والقصائد على لسان «الشنفري» و«تأبط شراً» و«امرىء القيس» و«النابغة الذبياني» وغيرهم... قادراً على خدع علماء البصرة والكوفة على السواء: هذا، فضلاً عن أن علماء عُرفوا بالنزاهة والتعقُّل أمثال الأصمعي وابن العلاء، أباحا لنفسيهما إقحام بعض الأبيات في قصائد الجاهليين. فأية صِحّة بقيت لنا إذن من الشعر الجاهلي؟ وأية ثقة تثق برواياتهم؟.

ولم يكتفِ المؤلف باتهام الرواة، بل اتهم أيضاً اللغويين الذين أجروا تعديلات لغوية في المضمون الشعري لأسباب، بعضها ديني. إذ يكاد الشعر الجاهلي ـ البالغ خمسة عشر ألف بيت تقريباً ـ يخلو ممَّا يشير إلى عبادة الأوثان. ومهما يكن عدم اكتراث الشعراء الجاهليين بآلهتهم، فإنه من غير المعقول ألاَّ يذكروها في القَسَم والمواقف الحرجة؛ بل المعقول أن تلك الإشارات حُذفت وحُوِّرت وبُدِّلت بما يناسب العصر الاسلامي. ومن أسباب الانتحال أيضاً تفسير الغوامض الواردة في الشعر الجاهلي، ولا يعوز المؤلف الاستشهاد، فهناك كثرة من الأبيات أُقحمت بغرض الشرح والتفسير. ولننقل ما سجَّله على بعض قصائد النابغة الذبياني: «ادرج من ضمن هذا النوع الأبيات (٨ ـ ١٨) في القصيدة رقم (١٥) للنابغة، إذ أرى أنها نُحلت وأُقحمت من أصل تفسير البيت السابع»؛ وشاهد آخر على هذا ربما يوجد في البيتين، رقم (٢٢ ـ ٢٣) في القصيدة رقم (٥) للنابغة، والابيات (٢١ ـ ٢٧) في القصيدة الخامسة»[٥]؛ هذه الأبيات حار ابن الاعرابي والمازني والمفضل الضبِّي والأصمعي في أمرها.

وأمام قضية أسباب الانتحال، نشير إلى نشوء الشعر أول عهده من الرجز الذي استخدم في الهجاء أو التفاخر، وكان يخلو من الصنعة؛ ثم استطال الرجز على يدي «الاغلب» أو «العجاج». أمَّا القصائد التي تنسب لأوس بن حجر وطفيل الغنوي وراويتها زهير، فقد عرفت بدايات الصنعة، وسمّي بعضها «بالحوليات». ورغم ذلك، بقيت القصيدة الجاهلية أجزاء مبعثرة دون ترابط باطني بينها، أو حتى بين أجزاء البيت الواحد. وبسبب ذلك تعدَّدت المقطوعات الشعرية ذات الوزن الواحد والقافية

والبوسنة بلاداً إسلاميّة، وصار سقوط القسطنطينية عام (١٥٤٣)، الذي لم تسهم فيه السياسة الأوروبية إلاَّ قليلاً، علامة لتوقف مشاريع الإرساليَّات.

السفر يصنعُ المسافة في اللغة والجغرافيّة. فقد طبع الأب الدومينيكي مارتان روث (Martin Roth) في مايانس عام (١٤٨٦) كتاب برناردي بريدنباخ **دليل السفر الى الأرض المقدسة**. فنرى فيه للمرة الأولى في أوروبا أبجدية عربية، وخريطة للقدس وترسيمات تمثّل شرقيين في ملابسهم، مُرافقة للنص. وسيحظى الكتاب بنجاح كبير، فيُعاد طبعه حوالى الأربعين طبعة. والحقيقة، أن الكتاب نفعي، لكنَّهُ كاشف من حيث مضمونه:

قراءة العربية: (الابجدية موضوعة بحروف لاتينيّة).

دليل سفر روحي ودنيوي معاً: النص لردم المسافة، الجهل، عدم المعرفة، والتسليم بأن الأرض التي تتوجه إليها غير ميسَّرة تماماً.

دليل حج: خريطة للقدس، وصف لها.

لقد مرت **النهضة** من هنا: القراءة اللاهوتية والدينية يرافقُها وصفٌ طبيعي. ويومي نسَقُ الاهتمام إلى ما هو نفعي هام شيمةَ التجرُّد والايمان. وسوف تدخل هذه المسافة في الدين عندما سيعود ليون الافريقي إلى بلاط ليون العاشر، تحت حماية البابا الذي يوصيه بوضع قاموس ثلاثي اللغة، عربي، عبراني ولاتيني، ويكلّفه بوصف أفريقيا.

إنه مغربي في السادسة والعشرين من عمره، وقع عام (١٥٢٠) في أيدي قراصنة مسيحيين، وسوف يقلب المسار، منقلباً من الإسلام إلى المسيحية، ثم عائداً قبل وفاته بعامين إلى إسلامه وموطنه. مات عام (١٥٥٢) في تونس العاصمة.

غدت صورة المسلم في نظر أوروبا هي صورة «التركي». فالامبراطورية العثمانية تقيمُ علاقاتٍ ممتازةً مع مدن ايطاليا ومع البابا. وكان مبعوثون أتراك يقيمون لفترات طويلة في البندقية؛ وبينما كان شارل الثامن، ملك فرنسا، يحلمُ بغزو إيطاليا ليجعلها قاعدة لغزوات صليبية جديدة، كانت البابوية تتلقى بين (١٤٩٠ و ١٤٩٤) ريعاً سنوياً من السلطان بايزيد الثاني للإبقاء على أخيه ومنافسه جيم (Jem) سجيناً في روما التي جاءها طالباً العون والمساندة.

في عام (١٤٩٣)، استقبل البابا الكسندر السادس في مجمع سري حضره الكرادلة، استقبل السفير التركي، فأطلعه على مشاريع شارل الثامن وطلب منه تدخل سكان البندقية لمواجهة ملك فرنسا. مقابل ذلك طلب بايزيد مدفوعاً من سكان البندقية، ببلوغ نيقولاس كيبو سدة الكردلة، وطالب خاصةً بإعدام جيم مقابل

(٣٠٠٠٠٠) دوقة والقسَم بالقرآن بعدم إيذاء المسيحيين.

بعد عامين وقّعت ميلانو، فراري، مانتو وفلورنسا على معاهدة لتمويل حملة عثمانية على البندقية، لكن عندما قررت البندقيةُ، حليفةُ فرنسا، مهاجمة ميلانو. لفت **لودوفيك ليمور**، دوق ميلانو، بايزيد مُنّبهاً إلى أن وقوع ميلانو في أيدي الفرنسيين معناهُ حرب صليبية جديدة. عندئذٍ أعلنَ السلطانُ الحربَ على البندقية.

تعجّ محفوظات المدن الإيطالية بهذه الرسائل الدبلوماسية المتبادلة مع الامبراطورية العثمانية؛ وما يهمُّنا فيها هو أن نرى في نهاية المطاف دخول الإسلام في جوقة السياسة الاوروبية، في حين أن ميدان النصوص ومعرفة الإسلام لم يتبَدل كثيراً منذ القرون الوسطى. وسينصبُّ كل جهد ايطاليا على السعي لفهم ما يختلط بسلطة سياسية، من دين وعلاقات دبلوماسية، وتنافس، ومن مسائل الأمن السياسي والغزو.

بالنسبة إلى الفاتيكان في عصر النهضة، تقعُ المسألةُ في منظور أقل تنازعاً. فقلّما يتعلّق الأمر بالإرساليات، إذ الجوهري هو الإبقاء على الوحدة مع المسيحية الشرقية، والمحافظة على اللغة، وقد جرى في **سبتمبر**/أيلول (١٥١٤) طبع: «Septem Horae Canonicae» بالعربية في فانو على البحر الادرياتيكي؛ وفي عام (١٥١٦) سيلي هذه الصفحات الـ (١٢٠) ديوان مزامير مترجمة إلى العربية مع نصها اللاتيني. ولا بد من الاعتراف بأنّ تلك الكتب كانت تخاطبُ اليعاقبة في مصر، الذين لم تكن تحظى لديهم بأيّ استجابة على ما يبدو.

انطلاقاً من ذلك، لا يمكن إلاّ أن تظهر في نصوص مراحل الفراغ والتشويش محاولاتٌ فردية ليس فيها ما يدلّ على أنها توصّلت إلى تحقيقات بيّنة ومتّسقة. لقد جرى تعلُّم الايطاليين العربية في دوائر عملية أكثر، من خلال الوسطاء (هناك في الحقيقة، التجارة، ضرورات التبادل، لكن لا شيء يدل حول الاستفهام واتخاذ المواقف، والنص، والقراء) وانعدام المنهج. فعلى قدر العلاقات الدبلوماسية للقوى الاوروبية بالامبراطورية العثمانية، كان الأمر يتطلّب العلاقات المباشرة، الإتصال. فقد وقّع فرانسوا الأول **الامتيازات** مع سليم الأول وتحالف وإيّاهُ ضد شارلكان. وإن الاصلاح سيشهد لوثر كتاباً، في مدح الإسلام يقولُ في مقدمته: «Tractatus de Moribus Turcarum».

« إذا قارنّا رجال ديننا بالمحمديّين، فإنهم يعتبرون يَرَقانات؛ كذلك فإن شعبنا وثني تماماً بالمقارنة مع شعبهم. هاكم السبب الذي يجعل الكثيرين ينتقلون بمثل هذه البساطة من الايمان بالمسيح إلى محمد ويظلون متمسّكين به بقوة... أعتقد مخلصاً أنه ما من بابوي، ولا راهب، ولا كاهن، ولا أيٍ من بني ديانتهم يمكن الاحتفاظ بإيمانه إذا قضى ثلاثة أيام لدُن الأتراك. أودّ التحدُّث عن أولئك الذين يكرّمون البابا صادقين، وفي عدادهم أشخاص ممتازون. أمّا فيما يتعلق بجمهور الآخرين والسواد الأعظم منهم، لا سيما الايطاليين، الذين هم خنازير قطيع ابيقور وهم لا يؤمنون في شيء، فإنهم لهذا السبب بمنأىً عن كل هرطقة وكل ضلال، نظراً لأنهم منغمسون تمام الإنغماس في إيمانهم الابيقوري، سواءٌ بالنسبة إلى المسيح أم إلى محمد أم إلى البابا ذاته ».